



قيس الجهومي

من مناهج الغرب الحديثة في دراسة النص

يتناول رضوان السيد في مقالته بمجلة التسامح تحت عنوان «جوانب من الدراسات القرآنية الحديثة والمعاصرة في الغرب»، الدراسات التي قام بها الغربيون على النص القرآني، فقد كان هدف الكتابات في القرن الثاني عشر في الغرب الرد على القرآن والإسلام لصالح المسيحية، وقد قسم بعض الدارسين التعامل مع القرآن عند الأوروبيين إلى مرحلتين: مرحلة العصور الوسطى المتأخرة والتي تتميز بالرد على القضايا اللاهوتية في القرآن، أما المرحلة الثانية فكانت مقاربة الرؤى اتجاه العالم بين الشرق والغرب أو الإسلام والمسيحية، وقد تحول الاهتمام لدى العلماء في القرن التاسع عشر إلى دراسة القرآن بطريقة فيلولوجية تاريخية، ويتجلى من تجربة علماء اللغة الغربيين السابقين عند استخدام هذه الطريقة للفتك بالعهد القديم والحديث وهم يحاولون أن يأخذوا نفس المسلك في تعاملهم مع النص القرآني، هذا لأن طبيعة المناهج الفيلولوجية التاريخية في قراءة النصوص تتعامل مع المفردات والكلمات لكي تدرس أصولها وتاريخيتها وليس النص كاملاً كوحدة كاملة.

أما لو كسنبرغ فقد ركز على الفيلولوجيا، ويذهب إلى أن النبي والمفسرين جهلوا معنى تلك الكلمات السريانية الموجودة في القرآن، لكنه رغم ادعائه فإنه يعجز عن أن يأتي بسورة قرآنية ولو قصيرة بأصلها السرياني كاملاً، كما أنه يفترض أن النبي لم يكن أمياً وأنه نهل من العالم المسيحي واستعان بكتاب مسيحيين في إنتاج النص القرآني بالسريانية ثم ترجمه لهجة المكية، ولما مات النبي وأصحابه بدأ نسيان الأصول القرآنية وتغير نطق الكلمات وبقيت الإشارات.

ويذكر الكاتب في مقالته أن محاولة لو كسنبرغ تتشابه مع محاولة جوزف القزي في أن القرآن مأخوذ من أصول يهودية مسيحية أو ما عرف بالمذهب الأببوني، وهم الذين ظهروا عندما كانت المسيحية مختلطة باليهودية ومنهم ورقة بن نوفل وخديجة بنت خويلد، ويروي الغزي أن ورقة أراد استخلاف محمد لكن محمد هاجر إلى المدينة، فيذهب إلى أن الفرق بين قرآن محمد والمصحف العثماني أن القرآن المحمدي نص شعائري للجماعة الأببونية أما المصحف العثماني هو كتاب مقدس للإمبراطورية الجديدة، ويصل لو كسنبرغ والغزي إلى نفس النتائج أنه قرآن عن أصل سرياني ومعانيه جهلت لزوال قرائه.

يذهب السيد إلى أن أكثر العلماء المسيحيين لم يستطيعوا التخلص من فكرة الأصول المسيحية أو اليهودية أو المسيحية/اليهودية للقرآن منذ قرون، وأن الاقتباس الوارد في القرآن ليس ثقافياً أو دينياً لتعليل التشابهات في وحدة الدين وتعدد الشرائع بل ربما كان ترجمة أو نسخاً، ويتجلى في موسوعة القرآن التي أصدرتها مؤسسة بريل في أربعة مجلدات طغيان المنهج التاريخي مع ميول استعمارية جديدة، وهي توضح مقدار الضياع الذي فعلته التفكيكية في الدراسات القرآنية بالغرب، وأرى أن طغيان المناهج الفيلولوجية هو محاولة الخروج بفهم للنص القرآني خارج واقع لغته الأصلية -العربية- لتبرير أفكار تعزز من رؤى الغرب اتجاه الأديان بما يخدم مصالحهم لأن الاشتغال على الكلمة دون النص كوحدة كاملة يُغايِر في فهم المعنى.

يذكر الكاتب أنه سادت قراءتان راديكالتان تفكيكيتان للنص القرآني منذ الثمانينات وحتى اليوم فالأول سعت إلى تفكيك النص من الداخل، أما الراديكالية الثانية فكانت تبحث عن أصول عبرية أو سريانية في تركيب النص، قاد التفكيكية الراديكالية الأولى البريطاني جون وانسبورو واعتمدت على نقض الرواية التي تقول إن نصوص القرآن جمعت في عهد عثمان من كتاب النبي وأصحابه، وبعد هذه الكتابة الأولية جاءت عمليات النقط والتشكيل، ولهذا جاءت التلاوة للنص ضابطة له، ومنها ظهرت القراءات السبع أو العشر، ويذهب وانسبورو ومن بعده تلامذته مثل كوك وكرون إلى أن النبي لم يدون شيئاً وإنما بقيت نصوص من القرآن في ذاكرة وصحف أصحاب النبي وجيل التابعين وتلاها إعادة ضبط وتعديل وتحريم وتغيير ثم استقر النص الحالي في القرن الثالث الهجري.

تعرض وانسبورو لنقد من كتاب غربيين لعدة أسباب منها أن القول بتحريم وتعديل النص لمدة قرنين بحاجة لإثبات ذلك عن طريق مخطوطات أولى، ثانياً إن اختلاف المسلمين اختلافًا شديداً في أواخر خلافة عثمان وظهور الفرق الإسلامية ومجموعة من الغلاة قالوا بنقص القرآن ولم يقل أحد بتحريفه، وخالفوا أكثرية المسلمين في تأويل النص القرآني وخلاصة الأمر أن النص استقر قبل الانقسام ولولا ذلك لظهرت مصاحف متنوعة.

اعتمدت التفكيكية الراديكالية الثانية على إعادة النص القرآني إلى عناصره الأولية والمسؤول عن هذا التوجه هما ليلنج ولوكسنبرج، ويرى ليلنج أن القرآن المكي ليس الذي نزل على النبي بعد بلوغه الأربعين فقط، وأن المسيحية كانت منتشرة بصورة كبيرة في شبه الجزيرة وربما كان محمد نصرانياً أو من الحنفاء أخذ أناشيد مسيحية وترجمها ثم أعيدت صياغتها للعربية، ويرى أنه بالتخلص من الإضافات يمكن اكتشاف الطبقة العميقة في المسيحية التي تمثل القرآن الأول، لكن ليلنج لم يقم بمحاولة شاملة لإظهار الطبقة العليا، والواقع أنه من دراسته يحاول أن يثبت أن أصل الإسلام هو مسيحية مقنعة أو ظاهرة!.

ومن الدراسات القرآنية الحديثة في الغرب اشتهر المستشرق الألماني البارو تيودور نولدكه وكتابه «تاريخ القرآن»، وتميز هذا الكتاب بأنه لم يترجم لغة أخرى إلا للعربية، ويحتوي الكتاب على ثلاثة أقسام: أصل القرآن وجمع القرآن وتاريخ نص القرآن، فنولدكه قد طرح في قسم أصل القرآن قضية نبوة النبي وطرائق الوحي.. إلخ وهو يقبل أمية النبي استناداً إلى أن أنبياء بني إسرائيل كانوا أميين، كما أنه يرى أن طريقة النبي في تدوين القرآن هي الكتابة مع الحفظ الشفوي، لكن هذا لم يثنه عن محاولة قراءة تركيبية النص ومفرداته وألفاظه والنظر في الوحدة الموضوعية، أما قسم «جمع القرآن» فتحدث فيه عن الجمع ومعاني الجمع أيام عثمان وهو لا يصدق رواية الجمع الإسلامية ولا يقدم بدائل سوى ما ذكرنا عن التدوين أيام حياة النبي وترتيب السور في المصحف أيام عثمان، وفي القسم الثالث من الكتاب المسمى بتاريخ نص القرآن: يحاول نولدكه وتلامذته تتبع مسألة الأحرف السبعة والقراءات القرآنية «المتواترة والشاذة».

لقد سيطر كتاب نولدكه هذا على الدراسات القرآنية حتى مطلع الستينيات وقد ظهر هذا التأثير على الدارسين من خلال تقسيمه للمرحلة المكية إلى ثلاث مراحل موضحا الخصائص الأسلوبية لكل مرحلة، إضافة إلى فكرته أن النبي اتخذ من أنبياء بني إسرائيل نموذجاً له، وبما أن العهدين لم يترجما قبل الإسلام فيرى أنه أخذ النصوص شفهايا.

وقد قام كل من البريطاني ريتشارد بل والفرنسي ريجيس بلاشير والألماني رودى بارت بترجمة القرآن إلى اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية مستندين إلى قراءات فيلولوجية وأسلوبية، ويلخص السيد الدراسات الفيلولوجية التاريخية لدى المستشرقين في ثلاثة خطوط: أولها أن النص القرآني في مجموعته هو ما خلفه محمد، والثاني: أن القرآن دون استناداً إلى مدونات كتاب النبي، أما الخط الثالث فيذهب إلى أن ترتيب السور الحالي هو مختلف عن الترتيب الذي خلفه النبي لأصحابه وربما اختلف ترتيب بعض الآيات في السور.

qabuazan@gmail.com

النصوص المنشورة تعبر عن وجهات نظر كتابها ولا تعكس بالضرورة رأي مجلة التفاهم أو الجهة التي تصدر عنها.

مجلة التفاهم هاتف : ٢٤٦٤٤٠٣١ - ٢٤٦٤٤٠٣٢ ، فاكس : ٢٤٦٠٥٧٩٩ +٩٦٨

البريد الإلكتروني : www.altafahom.net - al.tafahom@gmail.com - tasamoh@gmail.com